

الدرسون والفن الجاهلى

الشواهد كلها تشير اشارة واضحة الى ان الادب العربى عرف القصة فى كل عصوره ؛ بل وعرف منها ألوانا وفنونا . الا ان الشواهد كلها ايضا تقول ان هذه الصور قد اخرجتها ايدى المؤرخين القدماء ؛ واندارسين الراصدين للانتاج الفنى من اطار الأدب الا ماسف منها واصبح بلا غناء فى تطور او اشباع ؛ وما انحرف منها عن الهدف الاصلى لكتابة القصة الى أهداف اخرى تلائم مفهوم هؤلاء المؤرخين والراصدين للأدب من ارتباط بين سلطات الحكم وبين الانتاج الفنى ؛ ومن علاقة لابد ان تتحقق بين ما يثبتون من انتاج وبين أشكال الفن التى تخدم سلطة الحكم القائمة ؛ بل وبين علاقة اصحاب الانتاج بأصحاب السلطة فى عصرهم ..

واحسب ان هذا الادعاء سيثير الكثير من السخط والحنق عند كثير من الناس ؛ ولكنى احسب ايضا ان مراجعة صغيرة لاي كتاب من كتب الطبقات او كتب التاريخ والأدب ستثبت صحة هذا الزعم وقربه من الصدق والواقع .. واحسب ايضا انه من اليسير ان نفهم ان اصحاب السلطة هنا ؛ يكونون اصحاب السلطة الدينية مرة ؛ واصحاب السلطة فى الحفاظ على التراث العربى مرات .. فمن المعروف ان الأدب العربى لم يدرس فى

العصور الإسلامية الأولى لنفسه ، وإنما هو قد درس من حيث هو وسيلة الى تفسير القرآن والى استنباط الأحكام منه ومن الحديث ..

والقصص ليس دينا بل ربما تعارض مع المفاهيم الدينية ، وليس سياسة بل وربما تعارض مع السمات السياسية لعمر من العصور ، فلا عجب أن انصرف هؤلاء المؤرخون عن كل ما لا يخدم أهدافهم الأولى التى وضعوها نصب أعينهم حين شرعوا يؤرخون حياة العرب وفنهم بما يخدم ما حددوا لأنفسهم من أغراض ..

وقد يكون هذا قد أدى الى سقوط عديد من القصص التى عرفت فى العصر الجاهلى ، والتى تناقلتها الأيام تراثا فنيا خالصا معبرا عن روح أبناء الجزيرة العربية قبل الإسلام .. ولكن هذا أيضا قد أبقى الكثير من ألوان الفن القصصى التى كانت تخدم أهداف الدارسين .. فالحياة العربية قبل الإسلام كانت مليئة بالخلافات والعصبية التى تضرب بأصولها فى بطن التاريخ ، والتى تستند فى كثير من الأحيان الى معتقدات طال العهد بمصدرها الأول وأساسها الحقيقى ، وقد وجد الإسلام نفسه فى مركز هذا الصراع فكان لابد له أن يعتمد اعتماد كبيرا على معرفة كاملة بكل السيارات التى تضطرب بها الجزيرة العربية وتموج ، وكان لابد له أيضا من أن يمس أصول هذه الخلافات وجذورها ، ومن هنا كانت الاشارات الكثيرة التى جاءت فى القرآن الى أمم سالفة وأحداث

أخذت مجراها في الماضي البعيد . فالذى لاشك فيه أن العرب كانوا يعرفون من أمر هذه الأمم ، ومن أمر هذه الأحداث ما يجعلهم يتقبلون ما ذكره القرآن عنها في يسر وسهولة . . ونحن نزعم أن هذه المعرفة كانت على شكل أعمال قصصية ذات منهج ما وأسلوب ما دونت فيها هذه الأحداث وحفظت . . وعرفها العرب وتداولوها . .

وحين جاء المفسرون اضطروا إلى البحث عن تفسير كامل لهذه الإشارات التي جاءت في القرآن ، وهكذا اضطروا إلى إثبات الكثير مما جاء في القصص التي كانت معروفة في العصر الجاهلي . .

والعلماء مجمعون على أن العرب في الجاهلية كانت لهم قصص كثيرة ومتعددة ، فقد كانوا مشغوفين بالتاريخ والحكايات التي تدور حول أجدادهم وملوكهم وفرسانهم وشعرائهم ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني يكاد يكون ذخيرة كاملة من القصص الذي نقله الناس عن شعرائهم ومجالسهم وملوكهم . . بل أن كتاب الأغاني في حد ذاته يحتاج إلى دراسة واعية بأسلوبه وطريقته كتابته ، ولست أعنى بأسلوبه هنا المميزات اللغوية وتركيب الجمل فهذه الدراسات والحمد لله متوفرة عند الدارسين المعاصرين ونحن منها في تخمة . ! وإنما أعنى ببناء القصص فيها يحكى عن الشعراء ، فإن أبا الفرج يرسم في كل فصل من فصول كتابه صورة كاملة لمجلس من المجالس ، ويكاد يحدد لك في براعة وادقة كل ما في المشهد من جزئيات ثم هو ينقلك خلال تمصيدة تغنى بنغم

يحدده لك ، ينقلك خلال الشعر الذى يذكره والنغم الذى يحدده ،
لتعبر معه التاريخ الى صاحب القصيدة تشهد حياته كلها يقصها
عليك فى دقة لا تغفل التفاصيل ؛ ولكنها دقة موجهة — ان صح
التعبير — فهو يريد من كل ما يذكر لك ان يرسم جانباً معيناً فى
حياة شاعره ليرتسم فى ذهنك فى صورة واضحة انساناً له
خصائص وسمات بعينها ..

أحسب ان هذا البحث حول الأغاني سابق لأوانه ، وكل
الذى يعنينا هنا هو أن الكتاب ملئ بالقصص حول الشعراء
الجاهليين وغير الجاهليين بما يؤكد أنهم كانوا يعرفون هذا
اللون من الانتاج ويتناقلونه ، وليس كتاب الأغاني هو المرجع
الوحيد فى هذا بل ان المكتبة العربية غنية بأمثال الأمالى وصبح
الأعشى والعقد الفريد والشعر والشعراء وكتب التراجم
والطبقات بما لا يدع مجالاً للشك فى ان التأليف العربى قد تناول
الحياة الجاهلية فى كل مظاهرها .. الا أن الدارسين المحدثين
رفضوا بكل بساطة ان يعتبروا ما فى هذه الكتب من القصص
فنا نثرياً مميزاً له أصوله الجاهلية ، واعتمدوا فى هذا على أن
كل هذه الكتب انما دونت فى العصر العباسى الذى يبعد بعداً
زمنياً كبيراً الى حد ما عن العصر الجاهلى ..

ويقول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه الفن ومذاهبه فى النثر
العربى :

« وما كنا لتتخذ صياغة العباسيين مثالا لصياغة الجاهليين .
ومن أجل ذلك كنا لانستطيع أن نعتد — من الوجهة الأدبية —
بما يروى في هذا العصر من عناصر القصص والتاريخ ، لأن
الرواة حرفوا لفظه ، بل لقد حرفوا معناه على نحو ما حرفوا
تحفة الزباء ، ولو أن العرب كتبوا تاريخهم وقصصهم في العصر
الجاهلي لاعتدنا بهذا الجانب من نثرهم . ولكنهم لم يكتبوا
شيئا » ..

والسؤال الذى أحسبك ستسأله معى للدكتور شوقى ضيف
هو : والشعر العربى ادون فى العصر الجاهلى ؟

ومعروف أن الشعر العربى لم يدون فى العصر الجاهلى ، بل
ومعروف أن حركة التدوين تمت متأخرة واعتمدت اعتمادا كبيرا
على الحفظ والرواية ، بل ومعروف أن هذا هو أحد الأسباب
التي اعتمد عليها الدكتور طه حسين فى نظريته عن انتحال الشعر
الجاهلى .. ومع هذا فنقد درس الدكتور شوقى ضيف بل والدكتور
طه حسين نفسه الشعر الجاهلى دراسة تتناول الأسلوب واللغة
والتراكيب البلاغية قبل أن تتناول المضمون ، والدكتور شوقى هو
بعد صاحب مذهب الصنعة والتصنع والتصنيع فى كتابه الفن
ومذاهبه فى الشعر العربى ..

فالدارسون المحدثون اذن لم يعتدوا من الوجهة الأدبية بما
جاءهم من قصص جاهلى ولم يعتبروه فنا نثريا جاهليا ، وذكروا
حجتهم فى ذلك وهى تأخر التدوين .. ولكنى أحسب أن هناك

أسبابا أخرى سرفهم عن دراسة القصص الجاهلى صرفا ،
ليس منها على أى حال بعد عصر التدوين وان احتجوا به ..
فهم كما نعلم قد قبلوا الشعر الجاهلى دون كبير عناء ، بل هم
قد قبلوا من النثر الجاهلى الخطب وسجع الكهان والأمثال ،
وعنوا بدراسة هذه الألوان من الانتاج النثرى وراحو يخرجون منها
بأحكام على نثر الجاهلية دون أن يضطربوا الا قليلا أمام الشك
في صحتها .. وانما أحسب أن المسألة غير هذا ، أحسب انهم
تخلوا نقلا عن الدارسين القدماء صورة بعينها للعصر الجاهلى
والأدب الجاهلى ، نخلوا الحياة الجاهلية بداوة وفقرا ، ورحلة
لاتنتهى فى قلب الجزيرة والى أطرافها ، وعناء وخشونة ، وجهلا
بكل شىء مما يعرفه العالم فى قديمه وحديثه معا .. وتخلوا
الأدب الجاهلى طنطنة الفاظ ، وعبت فارغين يبدون مهاراتهم من
صنوف الرياضة الذهنية التى تجعل جل اهتمامهم منصبا على
وضع اللفظ الى جوار أخيه فى اتساق نفى معين .. وراحوا
بعد هذا الذى تصوره لحياة الجاهلية وأدبها يبحثون عما يرضى
هذا التصور ، وأنت فى الشعر الجاهلى الذى جمعه تكاد تسمع
نفس اللحن يعزفه أكثر من عازف ، كلهم لا يعرفون الا الرحلة
والناقة وبعر الأرام ، وكلهم يحيون على حب جنسى أسقم ما فيه
العاطفة ، وعلى حقد كرية يولد الهجاء للفخر ، وعلى أنانية مفرطة
تجعل الفن المفضل فيما رووه من شعر الجاهلية هو الفخر ، تم
على ذلة وصفار يرسمان الشاعر دائما مادا يده فى سبيل
العطاء ..

وليس من بحتى فى شىء الشك فى أمر هذا الشعر ، فقد يكون صحيحا أو لا يكون .. ولكن الذى يعيننى هنا أنه لا يكاد يصور من حياة أهل الجاهلية الا هذه الصورة البغيضة المنفرة التى أحسب أنها لا تكاد تمثل — ان مثلت شيئا — الا ما يتخيله هؤلاء الدارسون من قدماء ومحدثين عن شكل الحياة الجاهلية وحقيقتها ..

وغير هذا ما تنقله القصص التى عرفت عن الجاهليين من حور ، غفيتها قصص بطولة رائعة ، وحكايات حب انسانية ، وقصص وفاء وغدر ، وصراع فى سبيل الخير وفى سبيل الشر جميعا ، وفيها علاقات لا تنتهى بكل أجناس الأرض الذين عاشوا حول الجزيرة بطباعهم وعاداتهم ، وبيئتهم ومعرفتهم ..

والقصص التى جاءتنا عن الجاهلية اذن ترسم صورة تكاد تكون مخالفة تماما لتلك التى أراد الدارسون أن يرسموها ، وتعطى خصبا ونماء فى حياة الجاهليين احسب أن الدارسين اكتفوا بتكذيبه ونسبته الى الرواة والناقلين حتى لا يشوه الصورة التى اقتنعوا بها اقتناعا ..

والقصص ايضا ليست فيها هذه الرياضة الذهنية التى أولع بها أصحاب الدراسات ، فلن تجد فيها هذا العبث اللفظى الذى يسمى بالصناعة .. بينما الخطب والأمثال وسجع الكهان — تلك الصور التى ارتضوها ، واقتنعوا بها — لا تكاد تحمل من شىء

الا هذا العبث اللفظى الذى يتيح لهم أن يصولوا بحثا عن الصناعة ما شاءوا ..

ومعروف أن من أسباب العناية بتدوين الشعر الجاهلى الرغبة فى معرفة معانى بعض الفاظ القرآن ، فاحتجوا على معناها وصحتها معا بورودها فى شعر الجاهليين ، ثم بدلوا يروون لنا هذا الشعر الجاهلى بل ورووا لنا صور النثر التى نقلوها من خطابة وسجع لنفس السبب والأهداف . وأنا أيضا لا أريد البحث حول صحة هذا الشعر وتلك الصور النثرية ، أوضعت وضعها لتفسر الفاظ القرآن أم هى صحيحة ، ولكن الذى أريده هو أن أثبت أن هدفا لغويا معينا — بصرف النظر عن الهدف الدينى — كان هو الحافز على جمع هذا الذى جمعه من شعر الجاهليين .. وما دام الأصل فى الجمع لغويا ولفظيا فلا بد أن يكون الأصل فى الدراسة كذلك ..

فالدارسون القدماء ، والدارسون المحدثون كذلك لم يجدوا فى القصص الجاهلى صورة ما تخيلوا عن حياة الجاهليين فأسقطوه .. وهم كذلك لم يجدوا فيه ما يفيدهم فى بحثهم عن الصنعة وغريب الالفاظ فاكتفوا بذكر الحجة التى تقول انه حرف فى لفظه بل وفى معناه ، ثم أسقطوه ..

والدارسون قد وضعوا فى قلوبهم وأذهانهم أن العرب فى الجاهلية كانوا مشغوفين بالبيان وبالبلاغة ، ودليلهم على هذا هو القرآن الكريم نفسه ، فالقرآن كمعجزة بيانية لا بد أنه كان يخاطب

أناسا صناعتهم وهوايتهم البيان والبلاغة ، ولتثبيت هذا المعنى لم يقبلوا من صور الأدب الجاهلى إلا ما حفل بالصنعة البلاغية ، وما يقف شاهدا على براعة العرب الجاهلين البيانية .. بل ومعروف كذلك أن الدراسة الأدبية بدأت عند المسلمين على أساس محاولة تفسير اعجاز القرآن البلاغى ..

والواقع أننا لا نستطيع أن نسلم أن شعبا بأسره قد وقف حيانه على اللهو بالألفاظ والتجويد فى صور صياغتها ، وإنما نحسب أن هذا كان عمل طبقة معينة من الناس ، كانوا هم المتصددين للحياة الفكرية والقولية عند العرب ، ونحسب أن بلاغة القرآن كانت تقصد الى افحام هؤلاء والزامهم الحجة .. فهى تقارعهم بنفس سلاحهم وهى تنتصر عليهم بما لا يدع أمامهم مجالا للشك فى صحة الوحي ، وتعذر صدور القرآن عن بشر مثلهم .. وهذا لايعنى بالتالى أن الشعب العربى — كما قلنا — كان كله صاحب بيان وبلاغه ، والا لخلا القرآن الا من الصور البلاغية والبيانية .. ولكن القرآن مضمون ومحتوى .. ومن هذا المضمون والمحتوى استمد أثره على باقى العرب الذين لا يضربون فى البلاغة بسهم ، واستمد أثره كذلك على غير العرب ممن لا يعرفون العربية وما فيها من صور بيانية ..

ولهذا فقد اقتصر بحث الباحثين على ما يثبت ايمانهم ببلاغة العرب وفصاحتهم ، حتى ليقول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه الفن ومذاهبه فى النثر العربى :

« وفي جميع آثارهم من شعر ونثر نجد آثار هذه الرغبة الملحة في جمال المنطق وحسن التعبير . وما ينساق في ذلك من خلاصة السنة وطرافة بيان » ..

ومن قبله قال الجاحظ عن الجاهليين في كتابه البيان والنبين انهم كانوا « يحبون البيان والطلاقة والتجوير والرشاقة » ..

بهذه الروح اذن فهم الدارسون الأدب الجاهلى على انه أدب صنعة ، ومرجع لغة ، ودليل بلاغة وصناعة ، ولهذا فقد اغفلوا ما لا ينفعهم في هذا كله ، واعنى القصص ..

الا ان هذا كله لا ينفى ان العرب في العصر الجاهلى كانوا يعرفون القصص ، وان القصص كانت بابا كبيرا من أبواب أدبهم ، وان فيها دلالة كبيرة على عقليتهم وحياتهم .. وهم قد عرفوا ألوانا متعددة من هذا الفن . عرفوا قصص الأنبياء وقصص الشعوب ، وقصص الأمكنة وقصص الملوك والأبطال ..

ومن أشهر قصصهم أيام العرب التى تدور حول الوقائع الحربية التى وقعت بين القبائل كيوم داحس والغبراء ، ويوم الفجار ، ويوم الكلاب ، أو تلك التى دارت رحاها بينهم وبين ما حولهم من شعوب كيوم ذى قار الذى انتصر فيه العرب على الفرس ..

كما كان للعرب أحاديث هوى تتناقل وتروى كقصة المنخل اليشكرى والمتجردة زوجة النعمان وما كان بينهما من علاقة مما ملأ الكثير من صفحات الأغاني ..

وعرف العرب قصصا نناول بالفسير المطعم بالبقايا الاسطورية
الحياة والخلق ، فحكوا الحكايات عن نشأة العالم وعن آدم ونسله
وعن نشأة اللغات وتعددتها ، وعن التاريخ العربى كما تخيلوه حتى
الاسلام مما تجده فى كثير من الكتب مثل النيجان لوهب بن منبه
الذى يعتبر المرجع للكثير من الروايات العربية التى تلت عصره ..

والاسطورة عند العرب مثل الاسطورة عند سائر شعوب
الأرض تنشأ مع نشأة التفكير عند الانسان ، ومع نشأة قدرته على
الابانة والتعبير فيحاول عن طريقها ان يفسر ما يعجزه فهمه من
ظواهر الكون حوله ، كما يحاول عن طريقها ان يعلل تعليلا
خياليا ما يعجزه فهمه او ادراك سره ليصبح قادرا على التلائم
مع الظواهر الكونية التى لا يدرك سرها ولا يفهم أسبابها
ومكوناتها .. وطبيعى ان يعرف العرب الاساطير بكل أنواعها
وان يتداولوها ويتناقلوها كجزء من تراثهم العربى الذى يصاحب
عباداتهم الدينية المليئة بالرمز المثل بالخيال الجامع البدائى .
ومن هنا فان الكثير من قصصهم او ما نقلته كتب الاخبار مما تبقى
من هذه القصص مزدحم بآثار هذه الاساطير ملئء باشارات اليها
والى رموزها والى ما كانت تقوم به فى مراحل التفكير
العربى الأول من دور هام كتعبير فنى وكتفسير وجدانى تقدم
به الانسان العربى ليساعده على اعادة التوازن بينه وبين الكون
وظواهره واسرارده ..

واخذ العرب القصص أيضا عن ما جاورهم من أمم اما نقلًا

كاملا يذكرون فيه أصل القصة ، واما فيما يشبه ما نسميه اليوم بالاقتباس ، اذ يجورون في القصة لتلائم ذوقهم وبيئتهم وحياتهم . .

وكذلك أخذوا من أساطير الشعوب التي خالطوها وعرفوا ثقافتها . وامتزجت هذه الاساطير باساطيرهم في تفاعل حيوى وبلاحم عضوى ، اتاح لها ان تذوب في المفاهيم العربية وان تلتحم مع الاساطير العربية ، ليكون الناتج قصصا يمثل لا المفاهيم العربية وحدها ، ولكن مفاهيم الانسانية وتراثها في مرحلة من مراحل تطورها في هذه المنطقة التي اتاحت لها ظروف التجارة والرحنة ان تتعايش وتتعارف وتثرى وجودها بالأخذ والعطاء . .

وقد وصل الكثير من هذا القصص الى ايدي الدارسين المحدثين ولكنهم انصرفوا عنه مزورين وكأنها عن عمد ، ويكفى ان اسوق هنا ما قرره الأستاذ أحمد أمين في كتابه فجر الاسلام في حديثه عن أيام العرب اذ يقول :

« ترى هذه الأيام وأخبارها مجموعة في العقد الفريد ، وأمثال الميداني ، وقد زاد القصاص في بعضها وشوهوا بعض حقائقها ، كالذى تراه في أخبارهم التي حكوها في موت الزباء ، اذا قارنت بين ما قصوه وما ذكره ثقات المؤرخين عن زنوبيا . . فخير الزباء المروى في الكتب العربية عن هشام بن محمد الكلبي ، رواية خيالية موضوعة لا تتفق والتاريخ ، ولسنا ندري هل أفسدها العرب في جاهليتهم ، أو أفسدها رواة الأدب في الاسلام » .

هذا الذى أسوقه هنا من كلام الأستاذ أحمد أمين يوضح

الروح التى نظر بها الدارسون المحدثون الى هذه الآثار .. ويتشابه مع الاستاذ أحمد أمين فى النظرة الى هذه القصة الدكتور شوقي ضيف الذى يقول عنها انها « لا تتفق فى شىء وحقائق التاريخ الرومانى الصحيحة التى كتبت عن زنوبيا » .

ولم يهتم الاستاذان بهذه القصة الا من ناحية صدقها التاريخى رغم ما يمكن أن تعطى هذه القصة من دلالة واضحة على وجود التأليف القصصى الذى يستمد مادته من التاريخ ، والواقع انه ليس مطلوباً من كاتبى القصة مراعاة التاريخ والنقل الحرفى .. وربما لو قامت دراسة على احترام نص ابن محمد الكلبي وغيره ، واعتبار أعمالهم لونا من الانتاج الفنى القصصى ، ومحاولة المقارنة بين ما قصوه وبين ما تحكيه الوثائق التاريخية لاستنباط عملهم الفنى وأسلوبهم القصصى ، والزوايا التى وقفوا عندها ، لأمكن أن تكون هذه الدراسة أساساً لتكوين فكرة عامة عن الفن القصصى فى العصر الجاهلى .

أما النظرة الى هذه الأعمال وغيرها ، بل وإلى غالبية ما جاءنا من قصص جاهلى على اعتبار أنه افساد من أصحابه لحقائق التاريخ فهذا معناه اخراج كل هذه الأعمال من الأدب ، بل ومعناه اسقاط الانتاج القصصى العربى بكل ما فيه من قيم ودلالات .

ودارس الأدب ليس من مهمته فى شىء بحث صدق القصة التاريخى ، بقدر ما يدخل فى مهمته بحث أداتها الفنية وشكلها التعبيرى وقالها الروائى ..

والأصل. في هذا كله يعود الى النظر الى الكتب التي حملت
الينا هذه القصص كالأغاني والعقد الفريد والأمالى وغيرها على.
اعتبار انها كتب تاريخ تروى الحقائق المجردة ، ويعتمد عليها في
عذه الناحية وحدها ، رغم انها في حقيقة أمرها لا تخرج عن
أعمال تجميعية لبعض القصص المنقول عن العرب ، فهي الى الفن
أقرب منها الى التاريخ والعلم ..

بل لقد ذهب كثيرون من الدارسين الى أن كل هذه الروايات
كاذبة ولم تنقل عن الجاهليين لأنهم لم يكونوا يعرقون الكتابة . .
والواقع أن هذه النتيجة مبنية على مقدمة خاطئة فان النصوص
الكثيرة التي وصلت الينا تدل على أنهم كانوا يعرفون الكتابة ،
وأنهم كانوا أيضا يستعملونها في تدوين الآثار الأدبية . وليس
معنى عدم وصول النصوص المكتوبة الينا أنهم يجهلون الكتابة
ولا يعرفونها ، وإنما قد يكون معناه أن كتبهم ضاعت في عصور
متأخرة ، أو أهملت وأهمل شأنها ..

فمن المعروف أن المعلقات السبع كانت تدون وتعلق على
استار الكعبة ، كما يروى أبو الفرج في كتابه الأغاني انه كان في
الحيرة (كتاب) يتعلم فيه الصبية الكتابة .. كما يروى الطبري
عن هشام بن محمد الكلبي انه رأى في بيع الحيرة بعض مدونات
استخرج منها أخبار العرب ..

وفي صفحة ٢٠٨ من الجزء الأول من السيرة النبوية يقول
ابن اسحق في حديثه عن بناء قريش للكعبة : « وحدث أن قريشا

وجدوا في الركن كتابا بالسريانية ، فلم يدروا ما هو حتى قراها لهم رجل من يهود فاذا هو : انا الله ذو بكة ، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض ، وصورت الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء . لا تزول حتى تزول أخشباها ، مبارك لأهلها في الماء واللبن .. »

وقال ابن اسحق : « وحدثت انهم وجدوا في المقام كتابا فيه : « مكة بيت الله الحرام ، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل ، لا يحلها أول من أهلها » .. »

وقال ابن اسحق : « وزعم ليث بن أبي سليم انهم وجدوا حجرا في الكعبة قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة ، ان كان ما ذكر حقا ، مكتوبا فيه : « من يزرع خيرا يحصد غبطة ، ومن يزرع شرا يحصد ندامة ، تعملون السيئات ، ونجزون الحسنات ! أجل كما لا يجتنى من الشوك العنب » .. »

وقد جاء الاسلام وفي مكة سبعة عشر كتابا وفي المدينة أحد عشر .. ويقول الجاحظ في كتابه الحيوان : ان العرب كانوا يكتبون بعض عهودهم السياسة وكانوا يسمون تلك العهود المكتوبة (المهارق) .. وقد ورد في كثير من نصوص الشعر الجاهلي ما يفيد معرفة العرب للكتابة والتدوين .. وقد ذكر الميداني في مقدمة كتابه (مجمع الأمثال) انه رجع في تأليفه الى ما يربو على خمسين كتابا .. بل ان وهب بن منبه يروي في صدر كتابه التيجان في ملوك حمير انه قرأ « ثلاثة وتسعين كتابا

بما أنزل الله على الأنبياء فوجدت فيها أن الكتب التي أنزل الله على جميع النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتابا « ..

فالكتابة والندوين اذن لم يكونا مجهولين عند العرب في العصر الجاهلى ، وليس صحيحا أن الذين دونوا أخبار الجاهليين في العصر العباسى قد اعتمدوا على ما حفظه الرواة وما تناقلوه ، اذ ليس معتقولا على الإطلاق وقد جاء الاسلام يجب كل ما قبله . أن يظل الرواة على ترديدهم لتراثات العصر الجاهلى في حفظ واتقان ، وانما المعقول أن أصحاب كتب تاريخ الأدب التي دونت في العصر العباسى استعانوا بهذه الكتب اما مباشرة كالمدانى مثلا ، واما عن طريق الرواة الذين احتفظوا عندهم بالمراجع للأدب الجاهلى يرجعون اليها ويروون منها كهشام بن محمد الكلبى مثلا ..

وابن النديم صاحب الفهرست يروى أن محمد بن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء قد ابتدا بتأليف كتاب اسمه « ألف سمر من أسفار العرب والعجم والروم وغيرهم » فأحضر المسامرين وأخذ عنهم ما يحفظون كما اختار من الكتب المصنفة في الأسفار والخرافات ما يشاء ..

فالكتب اذن كانت موجودة ومعروفة وليس من داع في أن نكذب كل من يذكر أن العرب في الجاهلية كانوا يعرفون الكتابة وانهم دونوا آثارهم كتابة وانها نقلت إلينا عن هذا الطريق الى جوار طريق الرواية والحفظ .. ليس من داع لهذا لأنه التفسير

الصحيح لما نقل اليها من تراث قصصى كبير . فقد يكون من المعقول أن ينقل الراوى قصيدة شعر ، أما أحداث تاريخ وحكاية حياة فهذه تحتاج الى تدوين فى نقلها ..

ودليل آخر نسوقه وهو أن جزءا من معجزة القرآن البلاغية يعود الى نزوله على نبي امى لا يعرف القراءة والكتابة ، فكأن صنعة البلاغة يعرفها القوم القارئون ، وكأن الكتابة كانت شائعة وسط اصحاب البيان العرب ، وكما أن محمدا كان أميا فضرورى إذن أن يكون هناك من يقرأون ويكتبون ، وضرورى إذن أن تكون القراءة والكتابة شائعة بحيث يلفت الأنظار أن بجمل أمى مثل هذه الرسالة التى تعتمد على البلاغة والبيان وتأتى بالمعجز من القول ..

وقد دعى الدارسين الى الشك فى وجود الكتاب ، انه لم يذكر اسم كتاب جاهلى لمؤلف بعينه ، ولكن احسب أن وجود الكتاب شئ ووجود التأليف المنظم شئ آخر ، ومن يدرى لعلمهم أيضا عرفوا التأليف والتصنيف ، وما دما نخط فى بيداء هديها الوحيد هو الاستنتاج فليس لنا أن نقطع بشئ ، ولكن علينا فقط أن نوائم بين مختلف الفروض وبين ما هو اقرب الى طبائع الأشياء ..

الاقرب الى طبائع الأشياء أن العصر العباسى لم يدون كل هذا التراث الجاهلى من الذاكرة فقط ، ولكنه لابد قد اعتمد على اصول مكتوبة ، وما دام الدليل تحت أيدينا على معرفة العرب فى

جاهليتهم بالكتابة .. فليس ما يمنع من أن يكونوا دونوا قصصهم
كما دونوا معلقاتهم في صحف وصلت عن طريق التوارث الى الرواد
الذين نقلوها الى العباسيين فأخذوا منها ، وهذا لا يمنع بحال انهم
أضافوا أو زادوا ، ولكنه يؤكد أن رفض كل التراث القصصى
الجاهلى لمجرد أنه دون في مصنفات متأخرة زمنيا خطأ يحتاج الى
مراجعة .. ويؤكد أيضا أن الاعتماد فقط على الخطب وسجع
الكهان والصور المليئة بالأشكال البيانية وحدها ، تعسف يفسد
صورة الأدب الجاهلى كله .. وليس ما يمنع ما دما قد ارتضينا
بعضا من انتاج عصر أن نرتضى غيره ، وخاصة والمصنف الذى
ينقلها الينا واحد .. أما أن نقبل بعضه لأنه يلائم الصورة التى
رسمناها فى اذهاننا للأدب الجاهلى ، ونرفض بعضه لأنه يرسم
صورة أخرى أكثر اشراقا وحيوية ، وأقل صنعة وتكلفا فهذا
ما لا نستطيع أن نفهمه على الإطلاق ..

والحياة الجاهلية بعد مليئة بالشواهد على وجود القصة
وأهميتها فى حياتهم وأدبهم .. وأحسب أننا سنحاول أن نضع
أيدينا على بعض الشواهد الأخرى التى لم نوردها حتى الآن ، وأن
كانت أكثر دلالة وأصدق ابانة فيما يلى من فصول ..